سوسيولوجيا الأسرة

يعد الاهتمام التنظيري بالأسرة مسألة قديمة قدم التفكير التأملي التجريدي، وحديثة بحدوث التفكير الإمبريقي، فدراسة الأسرة انتقلت من التفكير الفلسفي إلى التحليل العلمي السوسيولوجي، من خلال دراسة الأسرة ووظائفها، وتغيراتها، وتفاعلاتها، وكذا تأثيراتها.

لقد أجمع الباحثون على أن الأسرة هي أقدم المؤسسات الإنسانية، حيث يذهب بعضهم إلى اعتبارها السبب المباشر في الحفاظ على الجنس البشري، لكنهم يختلفون حول تحديد تعريف شامل وكامل للأسرة، بسبب اختلاف الاتجاهات التي ينتمون إليها.

لقد تشكلت سوسيولوجيا الأسرة كفرع من فروع علم الاجتماع، في منتصف القرن التاسع عشر مع (فريدريك لوبلاي)، الذي يعتبر من الأوائل الذين ساهموا في تأسيس هذا الفرع.

اهتم مؤسسو علم الاجتماع الأسرة بدراسة المظاهر التاريخية المعاصرة لتطور الأسرة، وانتقال المجتمع من الحالة الريفية الإقطاعية إلى مجتمع المدينة الرأسمالي الصناعي، وما تبع ذلك من تزايد في عملية الحراك الاجتماعي.

إن من أبرز من تناول الأسرة من زاوية مقارنتها بالمؤسسات، إميل دوركايم الذي اعتبر بأن الأسرة مؤسسة اجتماعية ضرورية لاستقرار المجتمع، فهي تتطور مع تطور البنية الاجتماعية، كما أنها تؤدي دورا مهما في التنشئة والتكامل الاجتماعيين.

يرى إميل دوركايم أن الأسرة ليست مجرد جماعة من الأفراد الذين تجمعهم رابطة الدم أو يعيشون تحت سقف واحد، بل هي مؤسسة اجتماعية تنظمها قواعد قانونية وأخلاقية يقرها المجتمع. فالعلاقات الأسرية حسبه، لا تكتسب طابعها الاجتماعي إلا من خلال وجود التزامات متبادلة بين الأفراد، تحددها الأعراف والقوانين. ومن هذا المنطلق، فإن الزواج يعد الوسيلة التي تمنح الأسرة طابعها الشرعي، لأنه يؤسس لعلاقات قانونية ترتب لكل فرد حقوقا وواجبات. وبالتالي، فإن وجود الأسرة مقرون بوجود نظام اجتماعي ينظم الصلات بين أعضائها، ويخضعها لرقابة المجتمع والرأي العام، مما يجعل من الأسرة مؤسسة قائمة على أسس أخلاقية وقانونية، لا بيولوجية فقط.

النظريات السوسيولوجية المفسرة للأسرة:

- **الاتجاه التطوري:**

يعد لويس مورغن من أهم الباحثين الذين ينتمون إلى الاتجاه التطوري في دراسة تاريخ الأسرة، حيث يرى أن الأسرة نشأت عن طريق تطورها، من مراحل فوضوية لا تحكمها أية قواعد إلى مراحل أكثر رقيا تحكمها القوانين والقيم الأخلاقية، وبهذا فإن الاتجاه التطوري انشغل بالبحث عن أصل الأسرة، كما انشغل بتحديد المراحل التي تطورت عبرها النظام الأسري.

لقد دهب أغلب رواد التطورية إلى المقابلة بين الأشكال البسيطة للحياة الأسرية والأشكال المعقدة لها، وفي سياق هذا التقابل خلصوا إلى كون النظام الأسري يسير في خط تطوري، حيث يتطور من الأشكال البدائية إلى الأشكال المعقدة، وعلى الرغم من اتفاقهم على مبدأ التطور فإنهم اختلفوا من حيث المعيار الذي أسسوا عليه نموذجهم التطوري.

يعد يوهان جاكوب باخوفين من أوائل المفكرين الذين تناولوا موضوع الأسرة من موضوع تاريخي، حيث ترك ذلك أثرا كبيرا على الفكرين السوسيولوجي والأنثروبولوجي خاصة من خلال كتابه الذي نشره سنة 1861 والذي عنونه ب"حق الأم"، حيث رأى بأن الأسرة مرت عبر مراحل تطورية بدءا من مرحلة الأمومة، حيث كانت المرأة حسب طرحه هي مركز السلطة، فقد كان النسب يحسب من جهتها، كما كان ينظر إليها كرمز للطبيعة والخصوبة، ثم انتقلت المجتمعات حسبه إلى مرحلة الزواج الأحادي، فأصبح فيها الرجل يمتلك صلاحيات السلطة والقوة، كما بدأت تظهر مفاهيم من قبيل؛ الإرث، والملكية الخاصة، وقد فسر هذا التحول على أنه نتيجة لصراع رمزي وثقافي بين مبدأي الأمومة الطبيعية والأبوة القانونية.

أما هنري مورغان فقد رأى أن الأسرة مرت بمراحل متعاقبة، ففي كتابه "المجتمع القديم" اقترح مورغان منظورا آخر للأسرة، حيث اعتبر أن الأسرة بدأت في شكلها البدائي كعلاقات غير مستقرة، وتطورت تدريجيا إلى أشكال أخرى أكثر تنظيما، حتى وصل هذه التطور إلى ما يمكن أن نسميه بالأسرة الحديثة

اعتمد مورغان على نتائج أبحاثه التي شملت قبائل الأركوا وبعض الجماعات من الهنود الحمر، حيث انبنى مخططه التطوري على ثلاث مراحل أساسية من تاريخ البشرية، وهي:

- مرحلة التوحش
- مرحلة البربرية
- مرحلة التحضر

وخلصت هذه الدراسات إلى كون تطور أساليب ووسائل الإنتاج قد تحكم في التطور، الذي عرفته الأسرة عبر التاريخ، لكون البشرية سعت عبر التاريخ في مواجهة تحديات الطبيعة والضغط الديمغرافي إلى تحقيق الحاجيات اليومية، الأمر الذي أدى إلى تطور أساليب الإنتاج.

أما هنري مين فيرى بأن تطور الأسرة يعكس تحولا عميقا في البنية الاجتماعية والقانونية للمجتمعات، ذلك أنها انتقلت من نظام يقوم على السلطة الأبوية إلى نظام يقوم على العقد الفردي، وفي كتابه "القانون القديم"، صاغ مين فكرة أساسية في عبارة مفادها: "من وضع الأسرة إلى وضع الفرد"، حيث أكد بأن المجتمعات القديمة كانت تبنى على أساس الأسرة كوحدة قانونية واجتماعية، حيث كانت السلطة بيد الأب، ومع التطور الحاصل في المجتمعات، بدأ الفرد حسب هنري مين في اكتساب مكانة قانونية ومستقلة، حيث أصبحت العلاقات تنظم من خلال القوانين المدنية، حيث ساهم هذا التصور في فهم التحولات العميقة التي عرفتها الأسرة في سياق الحداثة، خاصة بعد ظهور مفاهيم جديدة من قبيل؛ المساواة بين الجنسين، والحقوق الفردية.

- **النظرية التجريبية:**

ظهرت هذه النظرية في مطلع القرن التاسع عشر، حيث عاشت أوروبا تحولات عميقة، شملت قطاعات الإنتاج، وذلك نتيجة التطور الصناعي الذي شهدته أوروبا في تلك الفترات.

حيث أفرز هذا التحول، بروز عدة مظاهر من قبيل؛ دخول المرأة إلى سوق الشغل، وانتشار الفقر والهشاشة، مما ساهم في طرح قضايا وإشكاليات تختلف بشكل جذري عن تلك التي شغلت رواد الاتجاه التطوري، حيث أصبح الاهتمام مصوبا نحو الأشكال والأنماط المعاصرة للأسرة، وعلى البحث في أشكال التغير الذي لحقها بسبب التحولات الاقتصادية التي عاشتها أوروبا.

لقد كان هنري لوبلاي أول من دراسة الأسرة من الجانب المنهجي والتجريبي الميداني، حيث ركز في دراسته على العلاقة القائمة بين الأسرة والاستقرار الاجتماعي والاقتصادي، حيث اعتمد منهجا وصفيا ميدانيا، من خلال اعتماده على دراسات مفصلة عن أسر أوروبية

من طبقات المجتمع المختلفة، حيث ابتكر ما يمكن أن يعرف بالمونوغرافيا، وهي دراسة حالة دقيقة لأسرة واحدة.

قسم لوبلاي الأسرة إلى ثلاثة أنماط رئيسية:

- الأسرة الممتدة: وهي الأسرة الأبوية، التي تعتمد على سلطة الأب، حيث تنتشر بين العمال في قطاع الفلاحة، وفي هذا النوع من الأسر يبقى الأبناء بعد زواجهم مع آباءهم في منزل واحد حيث يتولون إدارة ممتلكات الأسرة.
- الأسرة غير المستقرة: ينتشر هذا النمط بين العمال المرتبطين بالقطاع الصناعي، حيث تتأثر بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية.
- أسرة النسب: حيث تتمس بالتقاليد، الأمر الذي جعل منها أسرة مستقرة، ومحافظة على علاقات النسب، وقد وجد لوبلاي هذا النمط من الأسر منتشرا بين عمال الدول الإسكندنافية وألمانيا الغربية، وشمال إيطاليا.

ذهب لوبلاي في تفسيره لهذا التباين بين هذه الأنماط إلى الاختلاف القائم في طبيعة النظم الاجتماعية والاقتصادية المكونة للبيئة المحيطة، وقد شكل هذا التحليل نقطة تحول في دراسة الأسرة معتمدة بذلك على مناهج نظرية جديدة لمقاربة التغير الأسري.

أما مدرسة شيكاغو فقد ركزت على دراسة الأسرة في سياق التحولات الحضرية والصناعية التي شهدتها المدن الأمريكية، وخاصة مدينة شيكاغو، حيث اعتبر باحثو هذا التيار، من قبيل؛ روبرت بارك وإرنست بورغس، أن الأسرة ليست كيانا ثابتا، بل هي مؤسسة اجتماعية تتأثر بالبيئة الحضرية والتحولات الاقتصادية والثقافية،

لقد شكل كتاب بورغس المعنون ب "الأسرة من النظام إلى الصداقة" ثورة في علم الاجتماع الأسري، وذلك بسبب إعطائه للأسرة تعريفا جديدا لمفهوم الأسرة، حيث اعتبرها وحدة تتكون من أشخاص متفاعلين فيما بينهم، وهو التعريف الذي تأسست عليه نظريتي النسق والتفاعلية، حيث يبقى هذا التعريف من منظور مدرسة شيكاغو متكاملا، وذلك من حيث العناصر المكونة له، وكذا الأدوار التي يؤديها، حيث تذهب إلى اعتبار التفاعل هو الذي يعبر عن هذا التكامل، كما انه يعبر عن كل أنواع الصراع والتوتر داخل النسق الأسري.

لقد وصف بورغس الأسرة بأنها "عملية اجتماعية" تتغير باستمرار، حيث اهتم بتحليل قضايا من قبيل؛ التفكك الأسري، والهجرة، والتغير في الأدوار الأسرية، وتزايد الفردانية، كما استخدم منهجيات ميدانية كالملاحظة، والمقابلات، وذلك لفهم الحياة الأسرية في الأحياء

الحضرية، حيث ساهم هذا التيار في تطوير فهم ديناميكي للأسرة، باعتبارها كيانا يتفاعل مع محيطه ويتغير وفق تغير الظروف الاجتماعية.

- **نظرية النسق:**

إذا كانت النظرية التطورية ارتبطت أساسا في تحليلها للأسرة بالتطور التاريخي، فإن نظرية النسق انطلقت في قراءتها للأسرة من رؤية منبثقة من أعمال تالكوت بارسونز التي كان لها دورها في تطوير الرؤية النسقية الكلية المتضمنة في الأبحاث السوسيولوجية الكلاسيكية.

يعتبر بارسونز الأسرة بأنها نسق فرعي داخل النسق الاجتماعي العام، فقد ركز في تحليله على أن الأسرة النووية تؤدي وظيفتين أساسيتين في المجتمع الصناعي، وهما: التنشئة الاجتماعية للأطفال، وتوفير الاستقرار النفسي للبالغين، حيث استخدم بارسونز ما يسمى بنموذج AGIL لتفسير كيفية عمل النسق الأسري، حيث تمثل حسبه الأسرة وحدة تتكيف مع البيئة وتحقق أهدافها، كما أنها تحافظ على تماسكها الداخلي، إلى جانب ترسيخها للقيم والمعايير:

1- التكيف: هي القدرة على التكيف مع البيئة الخارجية، وذلك من خلال تلبية الحاجيات البيولوجية لأعضائه.
2- تحقيق الأهداف العامة: قدرة الأسرة على تحقيق أهداف مشتركة كالتعليم والاستقرار المالي.
3- التكامل: دعم وتقوية الروابط الاجتماعية بين أعضاء النسق.
4- المحافظة على نمط وهوية وحدود النسق.

تختلف الأنساق الاجتماعية فيما بينها، وذلك تبعا لعدة معايير، فمن حيث الحجم، هناك الأنساق الكبيرة والصغيرة، أما من حيث كثافة الاتصال بالمحيط الخارجي، فهناك ما يمكن أن نسميه بالأنساق المفتوحة والأنساق المغلقة، إلى جانب الأنساق المرنة والصلبة. أما علاقة النسق بالبيئة المحيطة به، فتتحدد من خلال نظام المدخلات والمخرجات، فالنسق إذن، يتفاعل مع المحيط العام، كما أن له استجابات للمؤثرات الخارجية.

تتحدد استجابة النسق أثناء التفاعل من خلال قواعد التحويل أي مجموعة القواعد التي تحكم فعل النسق تجاه ما يستقبله من مؤثرات، كما تتفاعل الأنساق في سياق القواعد الاجتماعية

والاقتصادية العامة، إلا أنها تختلف في قدرتها على تطوير قواعد جديدة تبعا لاختلاف درجات المرونة.

وبما أن النسق يعيش خالة توازن، فإن التغير يحدث فيه بشكل تدريجي، كما أن يحدث في الغالب من خلال استجابة الموافقة للتغيرات الخارجية التي تتمثل في انتشار المعرفة العلمية والتكنولوجية، أما التغيرات الخارجية، فتحدث توترات داخل النسق، من شأنها أن تأدي إلى تغيير أدواره ووظائفه، إلا أنه قد يتكيف معها، فيظل يؤدي نفس الأدوار والوظائف التي كان عليها. مما يؤهله لكي يكون نسقا متصلا بالجماعة، وذا أهمية في أداء وظائفه، أما إذا فشكل في عملية التكيف مع المتغيرات، فإنه يصبح نسقا معزولا.

ووفق هذا التصور فإن الأسرة تعتبر نسقا متكونا من عدة وحدات متفاعلة فيما بينها، كما انه ينتمي إلى محيط أوسع، تندرج الوحدات الاجتماعية في مستوياته، حيث تبدأ بالدوائر القرابية، وصولا بالدوائر المهنية والاقتصادية والاجتماعية الأوسع.

- **التفاعلية الرمزية:**

تنظر المدرسة التفاعلية الرمزية للأسرة كونها وحدة من الشخصيات المتفاعلة فيما بينها والمحكومة بأنماط من العلاقات والسلوك، حيث يتم في كنفها التنشئة الاجتماعية التي تركز على كيفية اكتساب الانسان لأنماط السلوك والقيم وطرق التفكير، فضلا عن المشاعر التي تميز المجتمع. ويرى أفراد هذه المدرسة أن الفرد يفعل وينفعل ويتفاعل، فهو حسبها مثير ومستجيب وقائم بالفعل الاجتماعي. تقوم الحياة الاجتماعية في الأسرة على تبادل الفعل والانفعال وتداخل السلوك، فالأسرة عند رواد التفاعلية الرمزية في مجال لحدوث الفعل الاجتماعي، أما التغير داخلها هو نتيجة التفاعل بين أفرادها.

ينظر غوفمان إلى الأسرة بوصفها مسرحا اجتماعيا تؤدي فيه الأدوار الرمزية بشكل يومي، فالأب والأم والأبناء لا يتصرفون فقط وفقا للأدوار الاجتماعية المحددة سلفا، بل يسعون إلى إدارة الانطباعات التي يتركونها لدى بعضهم البعض، مستخدمين بذلك الرموز والسلوكيات واللغة كأدوات للتعبير عن ذواتهم، ويظهر غوفمان أن التفاعلات الأسرية تتضمن واجهة تعرض أما الآخرين، وخلفية تمارس فيها الأدوار الحقيقة بعيدا عن الأنظار، مما يسلط الضوء على ذلك التوتر القائم بين الصورة الاجتماعية للأسرة وواقعها الداخلي،

من أهم المواضيع التي تهتم بها التفاعلية الرمزية:

- التنشئة الاجتماعية للأفراد.
- التنافس بين أعضاء الأسرة وعلاقة هذا التنافس بالتمكن من العالم الرمزي والقدرة على أداء أدوار مختلفة.
- مستوى المهارات وتصور الأفراد لذواتهم.
- مواقف التفاعل في الأسرة وعلاقتها بالمؤثرات الخارجية.
- مستوى الإشباع في الأسرة ونوعية الحياة الزوجية.
- تبادل الأدوار وتأثير ذلك على نمط التفاعل.
- ما يترتب على أداء مختلف الأدوار من ضغوط وتوترات وصراعات.

إن تركيز النظرية التفاعلية الرمزية على هذه المواضيع، جعلها تلتقي مع المقاربة السلوكية الاجتماعية من حيث نظرتها إلى الأسرة، فكلا الاتجاهين يعرفان الأسرة على أنها وحدة من الشخصيات المتفاعلة فيما بينها، وتمارس علاقات تتسم بالاستمرارية، تركز النظرية التفاعلية الرمزية على دراسة الجوانب السلوكية، التي تتمثل بوصفها استجابة للمواقف الاجتماعية، وانطلاقا من هذا التصور تكون الأسرة موقفا اجتماعيا في سلوك الانسان.

- **البنيوية الوظيفية:**

لقد قدمت هذه النظرية إطارا تحليليا لفهم الأسرة بوصفها مؤسسة اجتماعية تؤدي وظائف أساسية لضمان استقرار المجتمع واستمراريته، وينظر رواد هذه النظرية وعلى رأسهم بارسونز وإميل دوركايم إلى الأسرة باعتبارها نسقا فرعيا داخل البناء الاجتماعي الكلي، حيث تؤدي أدوارا محددة مثل التنشئة الاجتماعية وضبط السلوك، فضلا عن توفير الدعم العاطفي، وإعادة إنتاج القيم الثقافية.

وقد ركز بارسونز على الأسرة النووية باعتبارها حسبه الشكل الأمثل للأسرة في المجتمعات الصناعية الحديثة، حيث تتوزع الأدوار بين الزوجين في الأسرة بطريقة تكاملية، حيث تفترض هذه النظرية ـن كل عنصر في الأسرة يساهم في الحفاظ على الاستقرار والتوازن، فأي خلل في أداء هذه الوظائف حسبها قد يؤدي إلى ما يمكن تسميته بالاضطراب في النظام الاجتماعي.

تركز النظرية الوظيفية على ثلاثة أنواع من الوظائف الأساسية وهي:

1- وظائف الأسرة بالنسبة للمجتمع.
2- وظائف الأنساق الفرعية داخل الأسرة، سواء بالنسبة للأسرة ككل، أو بالنسبة لبعضها البعض.
3- وظائف الأسرة بالنسبة لأفرادها باعتبارهم أعضائه.

ويمكن القول، إن النظرية الوظيفية تركز في دراستها للأسرة على:

1- العلاقة بين الأسرة والوحدات الاجتماعية الكبرى.
2- العلاقة بين الأسرة والأنساق الفرعية الأخرى المنتظمة فيها.
3- العلاقة بين الأسرة والشخصية.